أحلام مُحَرَّمَة

مجموعة قصصية

سيد غالب

الناشر

دار طابا

أحلام مُحَرَّمَة

مجموعة قصصية

سيد غالب سيد إسماعيل

الناشر
دار طابا

الكتـــــاب: أحلام مُحَرَّمَة

المـــــــؤلف: سيد غالب سيد إسماعيل

الناشـــــــر:

دار طابا للنشر
القاهــرة 25 شارع البراموني. متفرع من شارع
الشيخ ريحان. أمام القصر الجمهوري. عابدين. جمهورية مصر
العربية. تليفون: 23919473 / 0123669625

الغلاف للفنانة: أماني زهران

الطبعـــــــة: الأولى 1431 هـ 2010م

رقم الإيـــداع: 20016 / 2010م

الترقيم الدولي: 3 - 41 - 6097 - 977

إهداء

إلى من علمنى فن كتابة القصة القصيرة..

إلى الأستاذ الأديب..

المهندس/ رضا سواعد..

تقديراً وعرفانا..

(المؤلف)

مقدمة

إن المولود الإبداعى الأول يتحمل دائماً كل أخطاء التجربة الأولى.. ونتصور أننا من خلاله نُعّبر عن أفكارنا.. لكنه فى النهاية يتحمل الطعم الطازج فى كل شئ.. كطعم النظرة الأولى.. اللمسة الأولى.. القبلة الأولى..

وحيث أنه يحمل أجمل طعم للفرحة، وتشم فيه رائحة التجربة الأولى وقد كتبت هذه المجموعة لعشر سنوات مضت وآثرت أن أقدمها كما هى.. دون تغيير أو تبديل بكل عفوية الكتابة الأولى.

(المؤلف)

مجموعة: أحلام محرمة - للقاص الموهوب: سيد غالب

للشاعر الناقد/ محمد على عبد العال

رئيس رابطة الأدب الحديث (جماعة أبولو)
ورئيس الجمعية المصرية لرعاية المواهب وعضو اتحاد كتاب مصر

لا أدرى كيف غاب هذا القاص سيد غالب عن الساحة الأدبية طوال هذه السنين؟ ربما شارك هو فى غياب نفسه، فأنا أحمله جزءا من تأخر انتشار موهبته، بجانب مشاكل النشر المعروفة، فهو يملك موهبة كبيرة فى القص، بلغة عالية وراقية، وغير مسفة، ولاتدعو لأيديولوجية معينة غير إصلاح عيوب مجتمعه، والتعبير عن رأيه ووجهه نظره، فى قضايا ومشاكل كثيرة كنت أتصور أن بعضها لم يعد موجودا فى المجتمع، وعلى سبيل المثال مشكلة الدخول بالإصبع على الفتيات التى عالجها فى قصة (أسيرة) وعلمت منه أنها لازالت موجودة وأنه حضر آخر حالة من هذا النوع سنة ٢٠٠٢، فى قرية قريبة من القاهرة نفسها، فى محافظة ملاصقة من محافظات الوجه البحرى، وليس الصعيد فقط، حيث قمت أنا شخصياً بزواج أول حالة بغير الدخول بالإصبع فى قريتنا بالصعيد بعد الاتفاق مع والد وجد العروسة التى كانت زوجة لأخى الأصغر، وذلك منذ خمسين سنة، ولم أكن أتصور أن هذه الحالات لازالت قائمة حتى الآن، بعد سن قانون عدم ختان الإناث، ولذلك نجد كل قصص القاص سيد غالب تعالج مواضيعا اجتماعية أو سياسية بطريقة تجعل المجتمع ينخو من هذه العادات السيئة فهو يقول فى مقطع من هذه القصة.

انقضوا عليها كوحش يتضور من الجوع، وأحست بمخالب تنغرس فى أوصالها، تباعد بين ساقيها، وقبل أن تسحقها الغيبوبة لمحت نصلاً أبيضا

يلمع، يمتد إليها فى شره، يجتز بعضاً منها ثم يعود ملطخاً باللون الأحمر.

أما قصته: ٢٥ طوارئ فهى فعلا واقع اجتماعى وسياسى، وكما يقول المثل: ياما فى الحبس مظاليم فبطل القصة قبض عليه شابا واعتقل لمدة أربعة عشر عاما خرج بعد اثبات براءته شيخاً محطماً، والغريب أن هذه القصة ذكرتنى بواقعة مشابهة حدثت مع الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى، حيث قبض عليه فى مرة فى موكب سياسى لأحد الرؤساء، واستكثروا عليه أن يكون موجودا ضمن هذا الموكب، وعندما تأكدوا من براءته كان قد مضى عليه عام كامل فى السجن.

يقول القاص الموهوب سيد غالب فى مقطع من القصة تركته الزوجة وتزوجت، عززوا وحشته، ولم يعد يريد شيئا من الخارج فقد مات الكثيرون وتكسر زجاج نوافذ من تبقى، وحين أطلقوه لم يجد فى انتظاره غير نميمة يتبادلها الناس.

وأيضا فى قصته: ثورة الجياع، وما أكثر الجياع فى المجتمع الآن، خاصة بعد تفشى الزحام والعشوائيات حيث يقول فى مقطع من القصة: عندما نظرت حولها فلم تجد شيئا، فالمكان يعشش فيه الخواء، لا طعام، لا شئ، وروائح الطعام الشهى تتسلل من المطعم المجاور إلى داخل الكوخ تغذو بأطيابها الأنوف الولهى قبل البطون الخاوية وصرخات الصبية تجأر بصخب اختلط بأنين الفاقة ودموع الحرمان: يامه.. جعانين يامه.

وبعد إعجابى بلغة الكاتب ومواضيعه يجعلنى أسترسل فى الكلام الذى سوف أمسك نفسى عنه الآن حتى أترك لك عزيزى القارئ قراءة هذه المجموعة لكى تستمتع بنفسك بلذة قراءتها والإفادة من لغتها.


الفارس

من فم جريدة الصباح.. لا فم أحد تأكد لديه النبأ.. أن ما وراء تعامد الشمس على أم رأسه ما يجاوز الساعتين ليس (أتوبيس السيدة عيشة)، ولا عبور سيارة الرئيس.. إنما حصان، مات واقفاً وسط السكة.. ولم يبك عليه أحد سوى صاحبه.. ولما مر بسيارته قبالته.. حياه.. لم يبصق عليه أسوة بالآخرين لكنه راعى حرمة الموت.. رفع إصبع الشاهد.. قرأ الفاتحة وخير شاهد على المدينة التى بخلت على الميت بصحيفة مهملة.. جسده العارى ودمه الذى خضَّب قواعد أعمدة النور والأسفلت سك فى عقله وقلبه.. ثَبَّتَ صورته النهائية واحتفظ بها على زجاج العربة.. عينان لهما فى أيام الفتح المبارك "عشم".. جسده الذى لم تحسب عليه ضربة سيف أو طعنة رمح.. فمه الذى صهل دماً ثم عض فى حواف الأرض.. عُصابةٌ خضراء من شارع الأزهر يزدان بها رأسه.. وشخاليل ذات أجراس كانت ناقوس خطر للمارة فى الطريق معلقةً فى رقبته.. وعرف للمرة المائة أن فتى فى عمر أولاده كان رصيده الهتاف والحجارة سقط نصف ميت ونصف حى، وما لا

يراه أحدٌ من الصورة سواه أن بنات المدارس بالخليل أخذن من دمه وكتبنَ على كراسات التاريخ "إنا العائدون".. ثم فرحن بالبراق المجنَّح فى كوفيته.. والقدس المغزولة وابتسامته.. عندئذ انتفَضَ الخيلُ مهراً.. والفارسُ أضحى جسوراً.. كان أطفال المدينة لايزالون يركبون المراجيح، ورواد المقاهى يلعبون الطاولة وينقسمون حيال الكرة فريقين.. ومازالت برامج الراديو على كل الموجات لاتتضمن الخبر.. وتواصل البث.. ورجال المدينة يختلسون النظر للبنات الباحثات عن الإعجاب والروائح.. أدار مؤشر الراديو.. تمنى أن يخاطبه أحد بالعزاء فلم يجد.. استقر على موسيقى جنائزية.. تذكر أغنية كانت تفوهت بها أمهُ مرةً حين سقط من على ظهر الخيل وهو صغير "ولا كل من لف العمامة زانها.. ولا كل من ركب الفرس خيالَّها".. وضع اللجام فى يده.. صرخ من فمه صرخة الرمَّاح.. هز قدميه.. شرَّع ساعده الأيمن.. استغنى عن الركاب.. رسم فى ذهنه خطة النصر وأحكامه.. ثم اقتحم.

عندئذ اصطدم صدرُه المنشرح بعجلة القيادة.. داست قدمَه على الفرامل خطأً.. اكتشف أن ما اصطدم به رأسُه هو سقف العربة وأن من يَصفَر له ويُصفق بالتشجيع هم جمهور السائقين من جنس المهنة وكانت أفواههم مملوءَة سباباً.. فحرك عربته ومضى بعيداً.



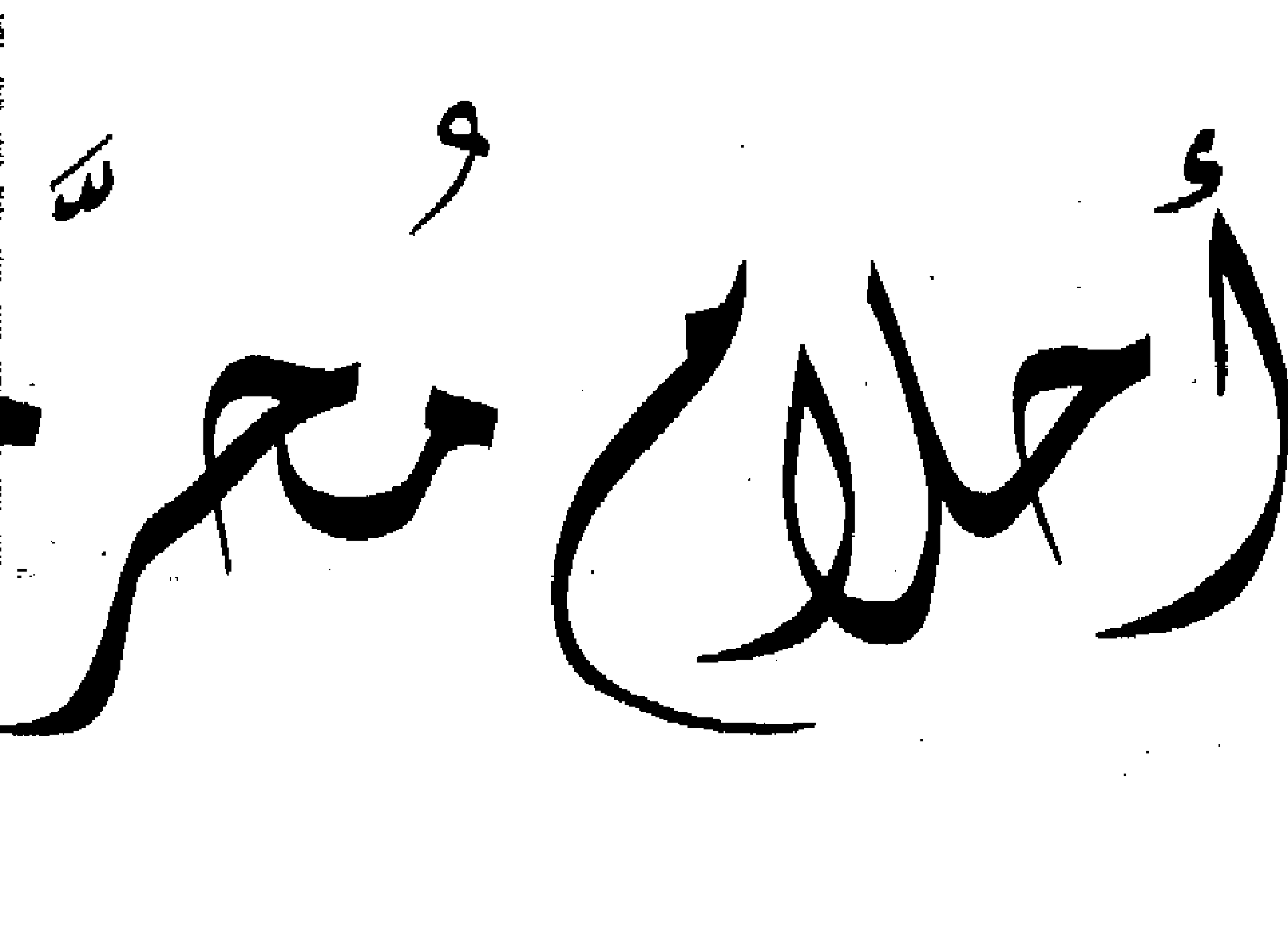
حتى تدوم السعادة

بهمسات كَبلَّتها أغلال الشعر الأبيض ردد على استحياء ـ وأنا كمان عاوز.. ـ إنه يوم الخميس.. قبل انتصاف النهار بساعة كاملة.. كعادته ـ هل كهلال العيد.. تلتصق بزراعه الأيسر شنطته السحرية "كوشم".. يخطو مندفعًا إلى المصلحة.. يهمس بصوت مفعم بالخبث: "صباح السعادة".. فيتحول الصوت المنفرد إلى "كورس" يردد بولعٍ شديد من فرط السعادة: "صباح السعادة" غير أن نغمةً نشاذًا انطلقت من الخلف.. استرعت انتباه الجميع فالتفتوا خلفهم مستنكرين غير مصدقين.. كان يردد مثلهم "صباح السعادة"، ثم أتبعها بأخرى كانت أشبه بصريرٍ واهن "وأنا كمان عاوز".. لكن رده لم يصل إلى مسامع صاحب الشنطة السحرية.. جاء ضعيفًا مُرصَّعاً بالحياء.. وحُمرة خجل تُغلف وجه صاحبها.. ربما لحكم السن.. أو لكونه سفيرهم إلى الله.. أو لعلةٍ أراد أن تَخفى عن الجميع.. أفرغت محتويات الشنطة البلاستيك على عجل: دهانات.. مراهم.. أقراص.. وصفاتٌ عُشبية جاهزة. وجد كل منهم ضالته.. تخلص الكيس من انبعاجته بعد أن نال الجميع حصصهم المعهودة.. فجأة قرر أن يخوض التجربة.. وقف في

الطابور "يا ااااه.. لم أصدق عيونى ـ مرحباً بالشيخ فى عالمنا المبهر".. دفع العربون، وسجل اسمه فى قائمة الشكك الطويلة.. تجرأ وأخذ "حبة" زرقاء اللون قيل له أنها تطيل أمد اللقاء.. بعد ليلة حالمة طويلة وشد وجذب.. سقط مترنحاً وهو يأخذ حَمَّامه الوحيد.. ثم بدأ يزحف على أرضية الحمَّام كثعبان عجوز أنهكه طول المسير.. وعندما وصل إلى أكرة الباب الموصد.. فتحها بعناء.. وقد ارتخت يداه كخيوط عنكبوت مزَّقتها هبةُ رياحٍ عاتية.. وازرق وجهُه المتوهج بنور الإيمان.. وانطفأ بريق عينيه اللامعتين.

ـ "شيخ رمضان ـ أنت سامعنى ياخويا؟ أنا أم أحمد مراتك"

ـ أخرجته العبارة من غيبوبته ـ انتبه إنها هناك وكذا بعض الصحاب.. شوَّحَ بيده.. رسم حروفاً فى الفراغ المحاصر بالخراطيم المُعَلَّقة بجسده المسجى على سريرٍ بغرفة الإنعاش.. طوح بكلماتٍ مبهمةٍ فى الهواء.. ثم نطق بصوتٍ تغشاه حشرجة أقربُ إلى الانكسار.. "هى كان مالها بس الدقيقة ـ ربنا يدمها علينا نعمة ويحفظها من الزوال".


أحلام مُحرّمة

تشرق الشمس من بعيد.. تكلل هامات الجبال.. ترسل خيوطها الوليدة فتخترق الشبورة المطبقة على كل شئ.. باتت قطرات الندى اللامعة مستلقية على "الشبت" الصحراوى ونباتات أخرى مجهولة الهوية ـ على الأقل بالنسبة لى ـ جرفت الرياح المزمجرة دواماتٍ من الرمال وجير المحجر القريب.. بدا الطريق البعيد طويلاً طويلاً يخترق عرض الصحراء غير عابئ بالهضاب المرتفعة والتلال المتربصة فى صمت بالعربات القليلة الشاردة ألتى رمى بها القدر لتلك المنطقة النائية.. ظل كلُ من مولد الكهرباء وآلة تقطيع الطوب يجأران بصخب.. يحاولان منافسة الرياح فى صفيرها الحاد.. ابتلع الخواء عواء عصبة الكلاب الضالة فاختفى بسرعة كأنه سقط فى بئر مجهولة.. وافتتحت المرأة الصغيرة زوجة خفير المحجر يومها كعادتها.. تحمل على رأسها جركن مملوء بالماء.. يمسك بذيل جلبابها صبىٌ صغير أقرع.. يحوم حول رأسه حلقاتُ من الذباب الصحراوى ذى الطنين المزعج.. تظل هكذا من الشروق إلى أن تبلغ الشمسُ كبد السماء.. تحمل الماء من البئر القديمة إلى خزان المحجر.. ثم تقوم بتجهيز الغداء للعاملين الخمسة.. تذهب غالباً بعد العصر وقد هدأت سطوة الشمس إلى البئر لتستحم فينعم جلدها

بالرطوبة ويسرى الخدرُ اللذيذ بين جنبات جسدها الغض.. بعدها تعود لتوقظ زوجها "العضمة الناشفة" ذا الشوارب الكبيرة غير المهذبة والتى غلب عليها البياض حيث ينام طوال النهار وتبدأ حياته فى الليل بين جنبات الصمت وظلام اللل وهيمنة الموت بأشباحه على الوجود.. حاملاً على كتفه البندقية الصدئة بحزامها الجلدى البالى.. كان دائما يقول لزوجته إن لصوص الطوب من البدو يتربصون للمحجر بعد منتصف الليل فإذا غفل سوف ينهبون المخازن التى فى الجانب الآخر للتل.. حينما يسدل الليل أستاره كان يجلس فى "عشة" على حافة التل يرقب ما يحدث أمامه "الجوزة" رفيقة السهر بكمالياتها من الحجارة ومعسل القص الذى يغواه.. وحينما يرتفع عواء الكلاب يزداد جريان الثعالب الصحراوية.. يسمع صوت إطارات سيارة النقل ثم يهدأ صوت محركها بالتدريج.. يهبط للسفح.. يتقابل مع البدو.. يعطونه جنيهات زهيدة وقطعة "حشيش" ثم يملأون العربة ويرحلون.. ويعود هو لزوجته منتشياً يبرّم شواربه.. يوقظها.. يسلب منها رحيق شبابها ولايترك لها سوى قبض الريح.. فى صباح منتصف الأسبوع تأتى عربة "لورى" كبيرة لنقل طوب المحجر للمدينة حيث المنازل والمبانى والزحام.. وفى يوم مشرق

هادئ.. جاء "اللورى" وعليه وجهُ غير مـألوف لم تعتده الأعين "تباع جديد" شـاب آخر غير الـضب البغيض ذو الجسـد الغليظ الذى طالما أزعجها بنظراته الخـبيثة الشرهة.. شئ آخر مغاير تماماً عـيونه العسلية فيها لمعان غريب.. وجه أبيض.. فارع القوام.. طُبع ذقنه بطابع الحسن فزاده بهاءً.. له صوت رائع ما سمـعت مثله من قبل رغم خشونته إلا أنه مُـغلفُ بنبـرات حزينة مـجـهولة وحـينمـا يُغنى يثـير الشـجن فى القلوب.. وآه من كلمة "عين ياليل" حـين يلفظها.. ترمى بكل مَنّ فى المحـجر إلى وادى التـيه حـيث تهاجـمه الذكـريات.. الماضى ودفء الأهل والعائلة فى الصـعيد.. وتتذكر هى أمـها العجوز آخـر ما تبقى لهـا من أهلها وكـيف زجت بها لهـذا العجـوز.. بكت لهـا كثـيراً.. توسلت إليها.. فقلبها ينقبض حين تراه وتجيب الأم بعبارات بسيطة.. فالأمانى كثـيرة ولكن التحقيق صعب وهما عـائلةٌ بسيطة بلا عزوة.. ثم أن الرجل سيحميها.. ودخل عليها وزغردت الأم فى ليلة احتجب فيها القـمر.. ثم لم يلبث أن خرج مختنقًا من غرفـة الأم التى تم فيها الزواج.. وفى الأيام التالية رحلت لهذا المكان المجـهول وما رأت أمها بعد ذلك.. فى يوم طلبت منه أن تزور أمها فأخبرها أن المرأة ليس لها سـوى ثلاث خرجـات إحداها من بطن أمـها والثـانية لبـيت زوجهـا

والثالثة لـلقبر.. ترقرقت فى عـينيها دموع طاغيـة.. جرت فى خطوط على وجهـها.. كان الشـاب قد أنهى الموال وصمت الصـوت القاسى الذى اخترق الأعمـاق وبقيت عينان تلمعان.. أحيـاناً تتذكر النجع.. الآثار.. المعابد.. الصبايا صديقـاتها.. أيام جميلة لاتنسى.. تتمنى من الزمن أن لا ينساها ولايقسو عليها.. وليترك لها "مجرد حلم".. تحقق فيـه مالا يمكنها تحـقيقـه فى الحقيـقة.. العـجوز يقوم من نومـه دائماً عصـبى المزاج.. يبصق بجـوار كنبتـه المتهـالكة.. يسبـها بأبيـها الذى أصبحت لاتتذكر مـلامحه.. أحياناً تسأل نفسها هل ابنهـا فيه شبه من جده؟؟!! وتحاول إقناع نفسها بأن الشبه بينهما كبير.. فصورة والدها المبقّـعة بالسواد التى تركـتها قـابعة على حائط حـجرتها القـديمة فى "سوهاج" تنطق بذلك.. لكنها لاتلبث أن تجد الحقيـقة جاثمة أمامها.. فـالطفل صورة طبق الأصل من زوجـهـا حتى فى مـزاجه المتـقلب.. الرجل يلعن أبيـها وأمـها واليـوم الذى رأى وجهـها فـيه.. فـتجـرى مـسـرعـة تأتى بالقـوالح المشـتـعلة تعـد له "الجـوزة".. كـابوس دائم السيطرة على حـياتها، وفى النهاية عـليها أن تقنع بالحلم وتعيش فـيه ويصبح لها المبرر الوحيد للحياة.

الكلاب تنبح بشراسـة.. تحاصر "اللورى" المنعـطف فى المنحنيات

يجرجر خلفه سحب الغبار المفتقد للوقار.. دنيتها قادمة.. فصوت محركها طائرُ جميلُ يغرد.. الغبار المثار حولها ما هو إلا ورودُ تتطاير بجانبها.. نباح الكلاب ترانيم.. ما أجملها!! انتظرته أسبوعاً وبعدها ها هو آت.. فى أول مرة رأته سحرها تماماً ودت لو خطفها وابتعدا بعيداً عن الناس عن الوجود كله.. ذات مرة كان يغنى وهى تصب الشاى للرجال.. صوته يُهيج المشاعر وفطرة نظراتها تأججها.. قالت له بولع شديد وهى مشدوهة تنظر إليه.. صوتك حلو.. أجاب وهو ينظر لعينيها العسليتين عينيك أحلى.. اسمك إيه؟ وقبل أن تجيبه لمحها زوجها فانصرفت على عجل وظلت طوال أيام الأسبوع تنتظره.. وأخيراً.. العربة قادمة من بعيد والعجوز مريض.. ستتكلم معه.. ستحكى له ما تريد.. ستعرف كل شئ عنه.. ولكن العربة تسير ببطء لكأنها تبخل عليها بالسعادة.. ما أطول لحظات الشوق فإنها تمر متثاقلة.. تعالى أيتها العربة بسرعة "لأجل خاطرى".. وتوقفت وهبط السائق وهبط من بجانبه.. لم يكن غير ذلك الضب البغيض ذو الجسد الغليظ يفترسها بنظراته.. ومضت أسابيع وأسابيع وهى تنتظر..


أسيرة

توافد الجمع الغفير يتجه إليها من كل ناحية، ومعهم من اختاروه لها زوجاً.. وتحت وقع طلقات الرصاص ودقات الدفوف انتهت الاحتفالية الهزلية التى كانت تحييها فرقة مزمار بلدى تقودها "غازية".. يدفعونها أمامهم إلى المجهول، وفى غرفة طلاؤها بالجير الأبيض يفترشها دولابٌ خشبىُ صغير داكن اللون وسريرُ كنعش مجهز بانتظارها.. تقدمت إحداهن لتنزع قطعة "التل" البيضاء التى ثبتوها فوق رأسها.. وبإشارة من إصبعها فهمت "أمل" أنها يجب أن تجلس على حافة السرير.. ارتعدت واصطكت أسنانها.. نادين على الزوج وناولنَه خرقة بيضاء.. وبدأوا يلتفون حولها فى شبه دائرة كأشباح بعد أن أوصدت باب الغرفة فى وجه الرجال المنتظرين بالخارج.. كان كل منهم مازال يحمل بندقيته فى تحفز وحواجبه معلقة باتجاه فوهتها.

تذكرت حين اصطدمت عيناها البريئتان بذات الأشباح السوداء وهن يتقدمن منها والتى كانت سبباً فى غيابها عن الكُتاب الذى كانت تعشقه لمدة سبعة أيام متواصلة.. ثمة جذوع يابسة تمتد

منها فروعُ ناتئة ذات مخالب تحيط بها.. تحتويها.. تملكّها الخوف.. ماذا يـريدون؟؟!! كانت نظراتهم تبث الذعـر فى كل أوصالـها.. ظلت تتقـهقر إلى الوراء وتتـقلص حتى تكومت فى ركن الغـرفة الداكنة.. انقـبـضت أسـاريرها.. زاغ بصـرها.. تـداخلت المرائى أمـامـهـا.. التـصـقت بالجـدران.. انكـمـشت أعـضـاؤها.. ابتل سروالها.. بدت كحمامة وديعة.. اختلطت قطرات العرق بدموع الرعب فى مذاق مر ابتلاعه.. لفظتـه فى وجوههم.. انقضوا عليها كـوحش يتـضـور من الجـوع.. وأحـست بمخـالـب تنغـرس فى أوصالهـا تُباعد بـين ساقيـها.. وقبل أن تسـحقهـا الغيـبوبة لمحت نصلاً أبيـضاً يلمع يمتـد إليها فـى شره يجتـز بعضاً منهـا ثم يعود ملطخًا باللون الأحـمر.. صرخـة فى الأعماق يقـابلها ابتسـامات النصـر الصـفـراء.. شـعرت بشـئ يكوى ذاتهـا قبـل جرحـهـا.. وسمعتهن يزغردن لقتل إحساسها البكر.

وفى تلك اللحظـة تمنت الموت.. سـولَت لهـا نفسـهـا الهـرب ولكن هيـهات.. أنىَّ لهـا ذلك!! وهى التى لـم تستطع من قـبل..

تكورت على نفسها رعباً.. تقدمت منها.. كانت متشحةً بالسواد كشجرةٍ عجفاء.. طويلةً كنخلة ومعها من تطوعن لإتمام المهمة الجللْ.. وفى لحظات كانت بغير شئ.. تاه صراخها بين زغاريد النسوة وطلقات بنادق الرجال الذين تلقفوا تلك الخرقة المضمخة بدمائها يتراقصون بها.. وعندما أفاقت تمنت لو أنها لم تكن هى..


٢٥ طوارئ

إنه العام ٢٠٠٦م..

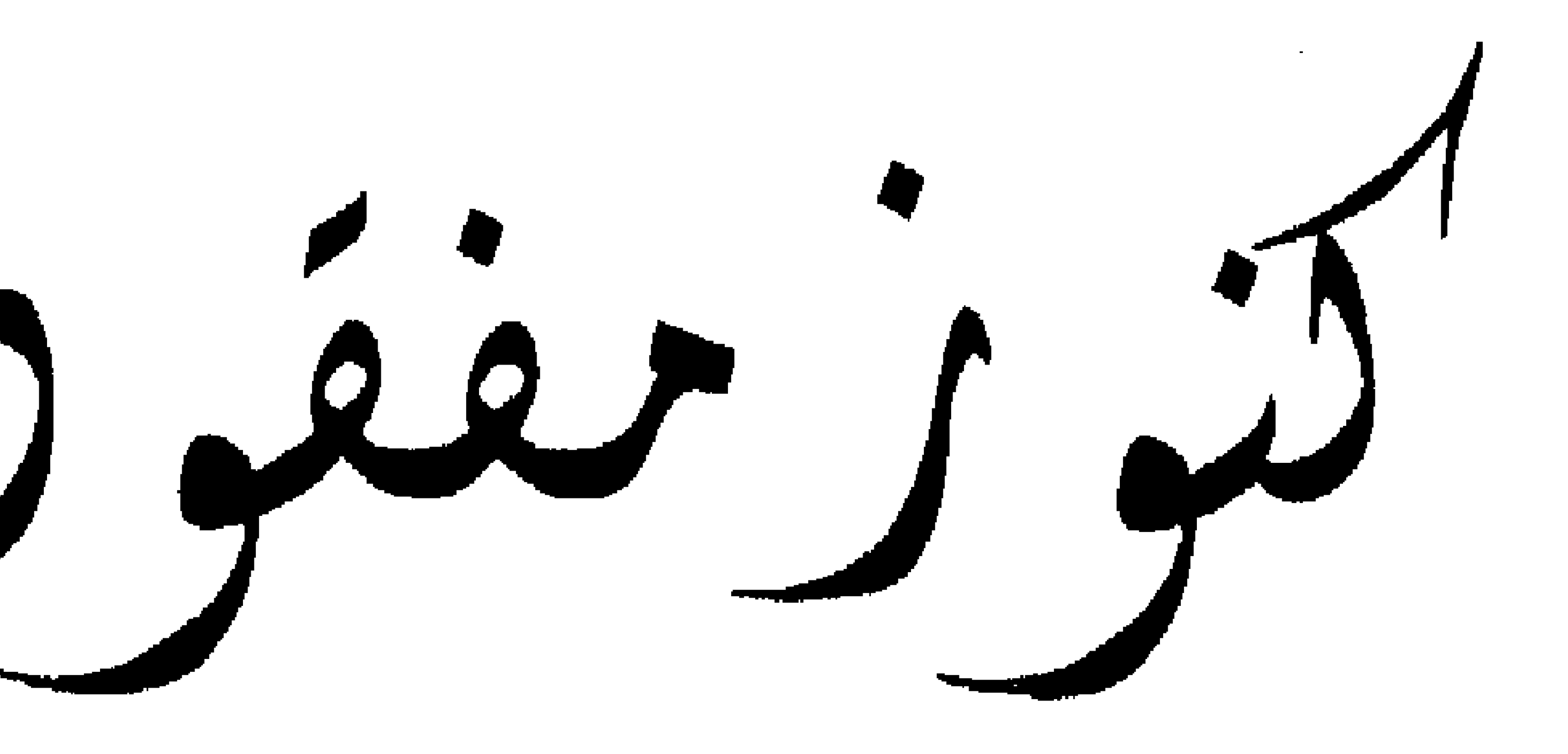
ـ مـر وجـه غـريب بين وجـوه غـريبـة.. جلـس فى كف الذكريات.. تصـفحناه كأننا على وشك أن نعرفـه ونذكره بمن كنا ومن كـان.. لكنه وجـه يفـر من الرسم.. من الصـدى.. من المكان والزمـان.. ثمة مـا يدل على أنه "هو".. وثمـة مـا يبعـده عن أدنى التشابه بين البشر.

ـ العينان العسليـتان هما ولكن بغير بريق.. الشـعر الأسود هو ولكن بغير خصـوبة.. الابتسامة هى ولكن بغير عـذوبة.. الكتفان يحـملان قـميـصـاً بصعـوبة.. كـان ذات يوم ساده أو مـشجـراً.. يتحدث إليـه أُناس فنصغى إلى صوته.. لعله يلثغ بالراء فـنعرفه.. لعله يشير بيديه لأعلى كما كان خطيباً.. ولعله.. ولعله..

ـ كان يصغى فـقط.. ثم أشار بإشارتين فعـرفنا أنه أخرس وأنه ليس صديقنا القديم.. صديقـنا.. كل جرمه أنه عرف طريق الله.. وواظب على صـلاة الفجر بالمسـجد.. كـان وراء القضبـان يحلم باليـوم السـعـيـد حين ينـتظر الإنسـان.. واعداً حـواسـه الخـمس الطعام.. بالجسد.. تركته الزوجة وتزوجت.. عززوا وحشته.. ولم

يعد يـريد شيئـاً من الخارج.. لقـد مات الكثـيرون وتكسـر زجاج نوافـذ من تبقى.. طالت لحـيتـه بعـدد السنوات.. بعدد الثـوانى.. وحين أطلقوه لم يجـد فى انتظاره غير نميمة يتـبادلها الناس.. ترك وراءه قضيتـه التى من أجلها أعتقل أربعة عشر عامـاً وتركته إمرأة أحبها وطفلة كزهرة جميلة ذبلت بفعل جفاف الأيام.. إنه هو إذن "عـبدالرحـمن".. ها نحن نتعـرف على مـا تبقى منه ذلك الوجـه النحيل الذى رأينـاه بين وجوه غريبـة بدا كالشبح.. اخـتفت الراء من لثغته لأنه صامت "كأخرس"..

ـ صديقنا تغير كثيراً فقد استبدلته الأيام..


كنوز مفقودة

ـ كعـادته كل يوم افتـرش الرصيف.. صف النـظارات والجوارب وأغطية الرأس.. تخلص الجوال من انبعـاجته وإن ظل فى العمق ثقلُ أكـبر.. زفـر فى أسى.. امتـدت يده لتخـرج الثقل من الجـوال.. على جـريدة عتـيـقـة فردها.. تناثـرتْ الأغلفةُ والعنـاوين وأوراق فقـدت أغلفتها بفعل الزمن والشيل والحط لبضاعة لاتُباع ولاتُشترى.

ـ مع انتـصاف النهار بدت "الـفرشة" شـبة خـاوية.. أكفُ كثـيرة اختلفت درجـة سُمرتها وخـشونتهـا التقطت معظمـها.. لم يكن فى حـاجة لأن ينُهك حنجـرته فى جـدال حول الثـمن.. فـالجمـيع رغم مهرجان الأصوات المرتفعة ونداءات "بص.. شوف" اتفقوا على سعرٍ مـوحدٍ كى لايبـخسـوا البـضاعـة قيـمـتهـا وكى يحـتفظوا بربحـهم المضمون.

ـ تراخى فى جلستـه على الرصيف وهو يرتشف كوب شـاى كافأ نفسه به بعد انتهاء (الشفت الأول).

ـ فى تأمله للطريق المزدحم ارتطمت عـيناه "الجاحظتان" ببضـاعته البائرة القابعـة على الرصيف.. حملق فيـها بغيظ.. مفـروضةٌ عليه.. فـهى كل ما خلَّفـه "الحـاج" بعد رحـيله.. لم يدرك حـجم المقلب إلا عندمـا خرج لـلسوق.. ولـم يدرك الحـاج قط حـجم المتـغيـرات التى

لحقت بسوق تجارته.. ظل لآخر يوم فى عمره يتندر بصولاته وجولاته وكيف استطاع أن يقتنص مجلداً قديمًا ذو قيمة يعرف المشترون أنهم لن يجدوه إلا عنده.

ـ بعد معاناة وفلسٍ طويل اقترح عليه أحد الأصدقاء أن يغير تجارته؛ فالزمن لم يعد زمن الكتب والدرر.. قليلُ من الشرائط المضروبة وكام غطاء رأس ونظارة كفيلة بأن تجعل "القاشية معدن".. لم يتردد وبإسورة الحاجة والدته بدأ تجارته ورغم تحسن الأحوال نسبياً إلا أن أدراكه بأن الثقل الذى ظل يحمله كل صباح فى جواله بضاعة كاسدة لم يكن فى استطاعته إلا أن يحمله على كتفه ويعود به آخر اليوم.. ربما كان السبب الوفاء لذكرى والده أو تأكيدات الحاجة صاحبة رأس المال الحالى أنها تجارة محترمة رأت معها أيام عز.. ومع ذلك لم يُفلح قط فى أن يكظم غيظه الذى تعاظم عندما كان يحاول أن يتصفح بعضها عسى أن يعثر على مفتاح كنز الحاج وسبب سعده الذى تحول على يديه هو لإفلاس.. لكن الملل سرعان ما كان يتسرب إليه فى كل مرة.. فيأخذه صخب نغمات وكلمات نائحة أو مرحة تنبعث من الكاستات المتناثرة حول طاولات البضائع المجاوره.

ـ ارتشف آخر قطرةٍ من كوب الشاى وتأهب للوقوف لِبدء

الوصلة الثانية من ندائه على البضاعة المتبقية لكنه تباطأ قليلاً عندما غمره ظل رجل انحنى متفحصاً العناوين الملقاة على الأرض.. رد على الرجل بتكاسل.. من المؤكد أنه يمضى وقته قبل وصول الأتوبيس.. فالجميع يقفون.. لكن أحداً لايشترى وكأنهم يضنون بنقودهم القليلة أن تضيع فى رزم الأوراق القديمة.. امتدت يد الرجل وانتقلت من كتابٍ لآخر.. سأل عن الأسعار.. فى نبرته وملامح وجهه ما يشى بأنه الزبون المنتظر.

- فى لحظة واحدة تملكته روح الحاج.. بدأ الفصال.. تحول إلى تاجر علاَّمة يدرك قيمة ما لديه ويرفض أن يبخس ثمنه.. مضى الزبون سعيداً بحمله الذى لم يترك فى جيبه سوى ثمن تذكرة أتوبيس الأقاليم الذى لاح من بعيد.

- فى هبة رياح مفاجئة طارتْ ورقة الجرائد القديمة مُحَلِّقةً فوق الرؤوس.. تتبعها بعينيه وهو يدس فى جيبه أول وآخر عائد من ميراثه.. وهو يتساءل تُرى من أين كان يأتى الحاج بكنوزه؟؟!!

الملاذ الكاذب

(مستوحاة من العصور المظلمة)

ـ توافدنَ فى خشوع.. منكسِّى الـرؤوس.. يمشين ببطءٍ شديد فى خطوط متعرجة تُفضى إلى الردهة المقدسة والتى تنتهى بدورها إلى غـرفة صـغيـرة صنُعت من خـشب التـاك المطعم بالأبانوس.. والمُرَصَّع بالأحجار الكريمة.. تتوسطها فتحـةٌ صغيرة يمتد أسفلها قطعـة مسـتطيلة من الرخـام الأبيض.. توضع عليـها اليـدين أثناء الجلوس على الكرسى الخشبى الرابض أمامها.

ـ كنَ يرتدين زينتهن المقدسة.. والبكاء يُمزق نسيج تراتيلهن..

ـ على استحياء.. دخلت بينهن.. بعد أن خلعت إكليل الشهوة على صدر حـجرى تقدمـه كقربان مهـزوم إلى التمثـال المقدس.. وعند الغرفـة الخشبـية جلست تحكي.. سبـقتهـا دموعهـا الفائرة.. تفـضحـها أقـواس النهدين الـبارزين.. وشـعرها الأسـود الطويل الكثـيف الذى يتـدلى على الكتـفين.. ثـم ينساب بغـزارة ليـغطى النهدين وكأنه مطرٌ انهمـر من السماء على أرض عطشى فرواها.. ففاضت بالخير والنماء..

ـ يخلع عليها رداء الطاعة.. من خلال الثقب الصغير.. يتملقها

بعينى خبير وجسد نمر يتسلق شجرة أهوائها.

ـ تحكى.. تعترف..

ـ على مشارف أدغالها يتربص بعينين ضاريتين..

ـ سيدتى.. كم من الشموع سوف تبددين فى صلواتك البائسة؟؟!!

ـ سيدى.. أليس لى من توبة؟؟!!.. قالتها وأنفاسها تكاد تحرق خشب الأبانوس متكأ القديسات وملاذ البغايا.. رفقاً بى..

ـ عقب قائلاً: سألتمس الحجر الوردى فشحويك يُوجج قداسة المكان!!

ـ تنفرج الغرفة الخشبية عن باب سحرى.. برشاقة تمتد يدٌ بيضاء من خلال الزنجيل الأسود.. تمسك بيدها المرتعشة المرصعة بالخطيئة.. يبلل جبينها ووجنتيها الورديتين بمسوحه المقدس..

ـ أيتها الراهبة: لقد بددت غنائمى فى محافل التطهر.. وأنضجت الثمار قبل أوانها.. فكان الجسد المكتمل محرابى.. وكنت تلاوتى الأخيرة.


أحلام

(١)

• كلاهما كانا خريجى نفس الملجأ.. أنهيا تعليمهما المتوسط معاً.. هى فارعة القوام.. سمينة الجسم.. قبيحة الوجه.. بينما هو نحيف.. ضعيف البصر.. جلسا على سور الكورنيش المرتفع أحاط يديها الضخمتين بيديه الصغيرتين العجفاوتين وسألها: "ماذا تريدين من غد"؟؟.

تردد السؤال فى أذنيها بضع مرات.. وهى ترمق المبانى الشاهقة والسيارات المسرعة.. أجابته باسمة.. "شقة فاخرة كبيرة.. تطل على شاطئ النهر.. وسيارة حديثة"..

(٢)

• حاولت الإمساك بقرص الشمس.. فدارت الشمس بيديها والأعوام بأصابعها فشحب لونها.. ترهل جسدها.. بينما هو شح بصره أكثر.. لم يعد يرى غير أشباح.. انسحب لحمه داخل عظامه.. فكرر عليها نفس السؤال وهو يبحث عن يديها: ماذا تريدين من غد؟؟ أجابته وهى تنظر للنهر الطويل المتسع أمامها.. شقة تطل على سوق شبرا.. فشبرا حى شعبى ملئ بالمواصلات

العامة.

(٣)

• دارت الشمس بكفيها.. وزحف الزمن على وجهها فأصبحت شبحًا مخيفًا.. بينما هو انحنى ظهره واقترب من الأرض يناطحها.. أصبح يتحسس الطريق أعاد عليها نفس السؤال وهو ينظر للأرض "ماذا تريدين من غد"؟؟ أجابته ببطء.. والوهن يقفز من عينيها: "حجرة صغيرة.. سرير.. ومخدة"..

(٤)

• قاما يجتازان طريق الكورنيش.. يتكئ أحدهما على الآخر.. من بعيد تأتي سيارة مسرعة تقضي على أحلامهما.. .. .. ..

قرار

ـ تغير فيكِ شئ عندما سكنتُ رحمك.. ومنحتنى شيئاً من روحك.. وشيئاً من دمك.. وشيئاً من ألمك.. وأشياء من ذكرياتك.. منذ سكنتُ هنا استطعتُ أن أوقف غفلات زمانك.. كل أحداث حياتك مرت فى هذه الغفلات وكأنك تفتحين عينيك بعد إغماضة لتجدى ما حدث قد حدث. وأنت فى دأبك اليومى جرياً وراء لقمة عيش هاربة.. لم تستطيعى يوماً أن تمنعى زمانك من غفلاته.. فى غفلة من هذا الزمان وجدت نفسك زوجة "بغل" لايملك من الرجولة سوى عضو ذكرى.. فى غفلة أخرى وجدت حولك بنتين.. وها أنت تحملينى عسى أن أكون الولد المنتظر؛ حتى لايُعيّرك "البغل" بأم البنات.. غفلة ثالثة لزمانك وضعتك فى خدمة النفوس اللاهثة وراء المتعة والجمال؛ لتمنحى ثمار فؤادك حياة أفضل كما كنت تعتقدين.. منذ سكنتُ هنا أصبحتُ شريكاً لكِ فى سنواتك الثلاثين التى لم تختارى منها شيئاً.. كأننى كنت معك عندما أبصرتْ عيناك النور فى أحد بيوت إحدى القرى الريفية النائية وقد اختاروا لك اسم "مكاسب" الذى لم تحبيه أبداً.. وكان ما يُعرف بوالدك يداعبك قبل أن تدرك سنوات عمرك

الثمـــانى.. مـاذا يفـعل؟؟!! وكـأن أمك كـانت تنتـظر بلوغك لتزوجك بأول عريس كمن يغطى على فضيحة.. وأنك ستعيشين معه فى تلك المدينة العريقـة ليس كبنات قريتك اللائى كن يعملن خادمات فى قـصورها الغارقة فى التـرف والنعيم.. لتعيـشى رعباً أبدياً يغـتصـب جسـدك ليلا ونـقودك المغـمـسة بدمك ودمـوعك نهـاراً.. قبل أن أسكنك وأشـاركك روحك وأنفاسك لم تـأخذى وقفـة لتشـاهدى كيف يبـدأ يومك ليلاً فى عالـم الدعارة والإثارة حتى توارثتِ مهنة زوجك القواد وأصبح يشار لواجهتك المستعارة "مقص دار مكى" بالبـنان وأضحتْ شهـرتك وشهرة بناتك أشــهر من نار على علم بعد رحـيل "البغل" عن حياتك.. تَغَّـير فيك شئ عندمـا سكنت رحمـك.. ومنحتنى شـيئـاً من روحك وشـيئـاً من دمك.. وكل ألمك.. وأشـياء من ذكرياتـك.. منحتك بدورى حـبًا أعمق.. ورفـضاً أقوى.. أصبـحت تستمـتعين بالسـخرية من كل شئ.. بعد أن كان كل شئ يسخر منك.. سخـرتِ بمتعة كبيرة من والدك.. وبغلك.. وابنتـيك الغارقـتين فى الفـتنة مثلك.. وكـأنك بتِّ تعرفين الحقيقة كـاملةً.. آن لك أن تختارى.. وكأن ساعتى قد

حانت.. لن تتألمي كثيراً لأنني شربت ألمك كله.. وأجمل ما يربطني بك كان هذا الحبل.. وسيلتي لأعطيك إشارة خلاصك عندما ترينني مخنوقًا به.. لم تستطع الداية أن تفعل شيئاً لإنقاذي في تلك الليلة.. فقد أنقذت نفسي من ألقاب كانت ستلتصق بي كالوشم أينما حللت وحينما نزلت "ابن القوادة" و"أخو العاهرات".. وصماتٌ لن أقدر على تحملها.. لا تتأخري عليَّ.. وكأني أراكِ حيث أنا.. وأنت تدسين السُم في البيرة المثلجة لتنهين حياتك وحياة ابنتيك بيديك أنت.. أنتِ وحدك.. عندما تحتسون ثلاثتكم وجبة الشراب المفضل.

- قرارك واختيارك.. لمرةٍ واحدة.. وإن كانت أخيرة.



فانتازيا

ـ تتسارع نبضاتها.. أو هكذا تعتقد.. وتشعر بحرارة تدب فى أطرافها.. بل فى كلها عندما يخطو مندفعاً إلى الفصل كعادته.. لاينظر نحوها.. يتمتم متعجلاً.. "صباح الخير" فتهمس بصوت مفعم بالحب.. آملة فى أن تصل مشاعرها إليه.. "صباح الخير".. لكن ردها لا يؤثر فيه.. يتوه بين أصوات الطالبات.. كلهن يهمن به إعجاباً.. أما هو فلم يسمح لأيهن بتخطى مرحلة الإعجاب.. وهذا أكثر ما جذبها نحوه.. ناضجُ وهو شاب مهذبٌ.. رقيق.. مرحُ عند الحاجة.. وسيم.. يتقن عمله ويؤديه بضمير.. ذلك الضمير الذى نام لدى معظم الأساتذة.. مدرسى هو "نعم" وتلك هى المشكلة!!

ـ لن يشعر بها أبداً فهى.. .. ..!! تكاد تترك مكانها لتقفز بجانبه عندما يلتفت إليها بين الحين والآخر.. إن حبها له صادق.. برئ.. منزه عن كل غرض.. لن يجد مثله لدى أية إمرأة.. لو أنه فقط يشعر بها.. يجتاحها الحزن.. وتشتم الكآبة عليها عندما يتركها ويغادر الفصل.. بالطبع يأتى مدرسون غيره.. لكنها لاتشعر بأى منهم.. لاتريد أحداً غيره.. إنها لاتطلب شيئاً إلا أن تصادقه.. ويطلعها على مشكلاته ومكنون نفسه، ويشاركها أحلامها وهمومها.. أهذا كثير!!؟؟ إنها تعلم بأنه مختلف عنها. فهو مدرسٌ يحلم بزوجةٍ

متفهمة وأسرةٍ صغيرة.. أما هى فـ.. .. ..!! !! !! !!.

ـ تنتهى الحركة من المدرسة ويرحل الجـميع.. يسود الظلام الحجرة وتعود هى لأحلامها وهواجسها.. كـثيرٌ من بنى جنسها معترضٌ على مشاعرها هذه.. وكم نصحها المقـربون أن تبتعد عنه لأنه لن يشعر بها مهما طال الزمن.. لكنها كانت تعـارضهـم بعنف، وتتجه نحو السماء مـتسـائلةً: إلهى ألسـت أنت من جعلـنى أحب؟؟!! ألست أنت من أوجـدنى على هذه الصورة؟؟!! لا فكـاك لى من هيئـتى.. ولا فكاك لى من حـبه.. فكيف السـبيل؟؟!! ثم تعـود لواقعـها وتعـترف أنـها ستظل تعانى وتشقى بحلمـها الصغير لأن الفارق بينهما كبـير.. كبيرٌ جداً.. فهو مدرسٌ فى المدرسة.. أما هى: فمجرد "سبورة".

ـ يقول المثل الشعبى "اسعى يا عـبد وأنا أعينك" لن تكتفى بالبكاء والنواح على حالهـا وأقدارها.. بل ستغـير نظرته وتجعله يشعـر بها.. بل ويحبهـا.. بدأت المحاولة الأولى: ما إن دخل الفصل حـتى إمتأت تصـرخ وتنادى وعـلا صـوتهـا حتى مـلأ الفـصل.. التـفت إليـهـا.. فرحت.. أخـيراً اسـتطاعت أن تجذب انتـباهه.. اقـترب منهـا وأمعن النظر، ثم جـاءها صوته وهو يـقول لإحـدى الطالبات "يبـدو أن هذه السبورة تحـتاج إلى تثبيت فالمسـامير تآكلت وأصبـحت تُصدر صريراً

مزعجاً فهلا طلبت من "الفراش" أن يصلحها" انهارت قوتها.. أنا صوتى صرير مزعج.. لقد فشلت المحاولة الأولى!! !! لكنها لن تيأس..

ـ فى اليوم التالى بدأت المحاولة من جديد.. أفرغت كل حنقها وعذابها فى جزيئاتها.. كانت قوة كبيرة جعلت الجزيئات تهتز بقوة.. وما أن بدأ الأستاذ يكتب عليها حتى بدأت السبورة ترتجف.. ارتسم الذعر على وجهه وصاح "زلزال"!! اندفعت الطالبات فى جو من الهرج خارج الفصل وخلت الغرفة.. وظلت هى مُعلَّقة على حائطها عاجزة حتى عن اللحاق بهم.. ناقمةً على ذلك القالب الصلب الذى قُلبت عليه.. اعتصرها الحزن.. فقد فشلت المحاولة الثانية.. وأيضاً فشلت المحاولة الثالثة.. والعاشرة.. والسبعون، ومرت الأيام والأعوام.. تخرجت أجيال وأجيال.. تزوج هو.. واستسلمت هى.. لم تعد تحاول.. لم يعد حال خشبها يسمح بالمحاولة أو حتى بالأحلام.. ثم كانت نهايتها المحتومة مُلقَّاةً على عربة بائع الروبابيكيا تعلوها أتربة الزمن.. هامسةً بين الحين والآخر فى صرير واهن "لم يعرف"


ثورة الجياع

تباعاً كانت الأنوارُ تلمع إيذاناً بانقـضاء نهارٍ طويل وقدوم ليل أطول.. وهَبتْ رياحٌ شتـوية إهتزتْ لها وريقات صـفصافة قـريبة تَشـابكتْ أغصـانهـا فى وحـشيـة.. كانـت تغطى نصف الكوخ.. واهتـزتْ خلالهـا تلك المصـابيح المُلونة التى كـانت تُرسل ضـوءاً مبـهراً تجـاوز تقريباً كل جنبـات المطعم القريب.. خـيوطٌ هلامـية لدخانٍ حائر تنبعـث من "كانون" استقر فوق أم رأسه "قِـدرُ" كبير من النحـاس المهـبب مـن الخـارج لزوم طهى أى شئ.. ونهـقـاتٌ واهنة لحـمـارٍ هزيل يتـريض بحـرية داخل "دِروة" بُـنيتْ بالطوب اللبن إلى جـوار الكوخ، لم تدعو الحـاجـة لربطه فى وتد أو قيـده بقيد.. وقد اسـتلقى فوق ظهره بصفةٍ شبـه دائمة "خُرج" أجرب.. دَأبتْ المرأة النحيلة ذات الملابس السوداء المهلهلة على حشره بكل ما يَقعْ عـليه بصرُها مـن زبالة الحى الراقى.. فيُلقَى بعـضهـا طعام أمام الحمار.. وتغسل ما ينفع ملابس للأولاد..

وفى غـيـر تنظيم تَكَّورَ حـملٌ لزجـاجـات فـارغة وشـبـاشـب بلاستـيك وأكيـاس نايلون كانت تقـتات به.. بعد توريد الـشحنة لمصنع بلاستيك قريب حيث يُعاد تصنيـعها نظير جنيهاتٍ زهيدة..

كانت شامخة كجبل، وهى فى دأبها اليومى جريًا وراء لقمة عيشٍ هاربة.. تَؤدُ بحملٍ استودعها إياه ورحل فى هدوء.. كوخ خشبى عتيق متشحٌ برداء الحزن يلوح بألوانه المحروقة.. له نافذةٌ صغيرة تكاد تلامس الأرض.. يُناطح أحد المطاعم الفارهة بحى راقى.. حيث يفصل بينهما خط حديد قاسى يعج بقطاراتٍ لاتعرف الرحمة.. فإذا ما نَظَرَتَ من خلال "الطاقة الوحيدة" أَبصرتْ عيناك صبيةَ ثلاث بأجسادٍ مُقرَّحة ممصوصة مثل خفافيش الظلام.. إلى ركن رطب يتقوقعون فوق "فَرشَة" من قش الأرز.. وسَمعَتْ أذناك صَريرَ أنات لاهثة كطنين الذباب تتعالى.. مصدرها فم طفلةٍ رضيع ذابلة تَخطتْ عامها الأول بقليل.. ترقد بجانبهم.. عاليهم إلى النصف لحاف بالى ينتمى لعهودٍ متأخرة.. تَنبعث منه رائحةٌ كريهة كرائحة البيض الفاسد.. وفى أحد الزوايا انتصب زير فخارى مُلصَّم زحفت عليه مستعمرات الطحالب الخضراء.. وعدد واحد "قُلة" قناوى مشطوفة الحواف.. ورحاية عتيقة لدش الحبوب.. وعلى الأرضية التراب سكن صندوق باهت اللون عليه غطاء من خشب الزان مرسومٌ بخطوطٍ متداخلة تشكل فيما بينها

نجوم مثمنة الزوايا.. تقبع به كُتُبٌ قديمة وأوراقٌ حمراء لشيخ أزهرى ميراثها الوحيد من جدها الأكبر صاحب العامود بالأزهر تفتحه كلما ضاقت بها الحياة؛ فتسترجع سير الصحابة والصالحين.. وتعيد شحن بطارية الكفاح لأيامٍ قاتمة آتية.. ونَجحتْ فى تثبيت الوضع إلى حد ما.. ودام الحال هكذا.. وكانت تقاوم الحياة فى ثباتٍ وصبر.. إلى أن جاء ليلُ ذلك اليوم والذى استعصى أن يمر بسلام كباقى أيام كالحة مرتْ من قبل.. عندما نظرت حولها فلم تجد شيئا.. فالمكان يعشعش فيه الخواء.. لا طعام.. لا طحين.. لا شئ وروائح الطعام الشهى تتسلل من المطعم المجاور إلى داخل الكوخ.. تغزو بأطيابها الأنوف الولهى قبل البطون الخاوية.. وصرخات الصبية تجأر بصخب اختلط بأنين "الفاقة" ودموع الحرمان: "يامه.. جعانين.. يامه".

هنا إستفزتها دمعةٌ حائرة.. سَقطتْ من عينين مؤرقتين.. لكنها جَفتْ قبل أن تستقر على سطح الخد الملتهب.. تَسارعتْ دقاتُ القلب.. وهى تحمل الرضيع.. تضمها إلى صدر يبس.. ضن عليها بمزقة لبن.. شاعرةً بعظامها النحيلة.. الدقائق صارت أعواماً

وهى فى دوامة التفكير منغمسة غير أن فكرةً قديمة إخترقتْ سكون ذاكرتها.. قفزتْ أمام عينيها فجأة.. جعلتها تضع "القدر" على النار، وتملؤه بالحجارة وتنتظر أن يأتى "عمر".. غَلَىّ الحجر فى القدرِ.. اشتعل الصبيةُ صراخاً: "جعانين يامه!!".. "حالا ـ ح ـ يستوى الأكل.. شوية صبر يا ولاد".. زحف الليل بسكونه ولم تداعب أى قطرةُ نومٍ جفن أحد من الصبية.. لقد تأخر "عمر" ـ تحدث نفسها.. لم يمل الصبية من الصراخ والعويل.. لكن أمهم التعبة إرتمتْ على الفرشة فى نومٍ كاذب.. استبد الغضب بالصبية حين علموا أن فى القدر حجراً.. ولهذا أشعلوا النار فى أعمدة الكوخ.. وكم كانت النار كريمةً لأنها أحرقت الكوخ فى دقائق وأتت بالطارق فى زمنٍ قياسى.. لقد أتى المنتظر ليقول: سيدتى لقد أثر دخانك على نظافة مطعمى!! لم تنظر إلى عبير وجهه الذى يفوم بالروائح.. لكنها التفتت يُمنةً لترى رماد الكوخ.. ونظرت إلى "اليسار" لتشاهد أطفالها وقد نبتت لهم أظافر طويلة.


خلود

ـ لم يكن يدرى سـر ذلك الرباط السـحـرى الذى كـان يربطه بها.. فلطـالما جمعـتهمـا معاً ذكـرياتٌ سعـيدة وأخرى مـؤلمة كان يستـشعرها كلما دنا منهـا أو أطلتْ هى عليه من بعيـد.. جذورها ضاربةٌ فى الأرض تكاد تحسبها تمتـد أميالاً تصل إلى آخر العالم.. ظلها وارف فـارش على مساحة كـبيرة من المكان الخـالى إلا منها وسط حرارة صيف فـظة.. ولما لها من خصال جمـة أفاضت على الجميع بخيرهـا الأهل البسطاء الذين نذروها لوجه الله.. وعابرى السبيل الذين كانوا يقصدونها لأغراض شتى.. فمنهم من ينشدها ليستظل بظلها وقت القيظ.. ومنهم من يقذفها بحجر فترد الإساءة بكرمٍ بالغٍ مـسقطةً عليـه أينع الثـمار.. صـغاراً كنا نأخـذ أوراقهـا الخضـراء العريضـة اللامعـة طعامـاً لدودة القز.. ونـلتقط حـبات ثمارها فنأكل ونملأ جـيوبنا.. كثـيراً احتضنـتها أيدى العاشـقين.. ولكم سمعت كلمات الغزل وأحلام العذارى.. فكانت على السر حفيظة.. نالت شهرة كبيـرة حتى أنه لما عُبِّد الطريق المار بها أسموا مكان النزول باسمـها "محطة الشـجرة".. أما هو فـقد عرفـها منذ الصبـا فكان يحمل سلة البيـض الملون ويجلس تحتهـا يشم رائحة

الربيع.. بصماتها تظهر واضحة جليةً على جبهته عندما سقط من فوقها وَشُج رأسه.. حمل ساقُها أسمه ومحبوبته مكللين "بسهم كيوبيد" وقلب ملتاع من حرارة الشوق وقرب اللقاء متواعدين على العهد مهما طالت المسافات وعزت اللقاءات..

ـ أفاق فجأة على صوت كمسارى الأتوبيس يسأله إلى أين؟؟!! أجاب بجبين عليه نقوش سبع سنواتٍ كاملة من شمس الغربة وهو يشير بإصبعه "هناك".. كان المكان هناك.. لكنها لم تكن هناك.. فقد زحف العمران على امتداد الزمان غير عابئ بالمكان.. ولم يعد هناك مكانٌ لزرعٍ أو لشجرة.. ومما أثار حفيظته لحظة الوقوف هو نداء السائق: اللى نازل "محطة الشجرة"!!

حُلم

استيقظتُ باكراً هذا الصباح على غير عادتى فى فصل الصيف.. وقفتُ عند النافذة أشم رائحة الصباح.. لمعتْ فى ذاكرتى صور المنام الذى تركته للتو فوق الوسادة.. ذهبتُ إلى السرير ألملم ما تبقى من خيالات.. تمددتُ من جديد.. الوجوه والأماكن تتناوب على ساحة الذاكرة.. بابٌ "خشبى" عتيق أقف قبالة ألوانه المحروقة دون حراك.. يقترب منى رجلٌ ضخمٌ بملامح باردة.. يشير إلىَّ كى أتبعه.. ندخل من الباب الكبير.. رأيت كنزاً.. قال الضخم: أنه لك!! بدأت أمشى فى أروقة المكان الغامض.. دهليزٌ طويل يمتد إلى آخر العتمة.. التفت لأعرف ما يدور حولى.. لأرى.. لأسمع.. لكن لا شئ.. أصواتٌ مبهمة تتحول إلى ضجيج.. سلالم تمتد بعيداً فى الفضاء المغلق بلا نهاية.. نجحت أخيراً فى الوصول إلى نهاية إحداها.. فى أعلى السلم رجل أصلع يستظل بقبة حجرية.. نظراته قاسية كحجارة القبة المنقوشة.. قال بلهجة ساخرة: الورقة التى تريدها موجودة داخل صندوق المغارة.. ثم أردف بلهجة آمرة: اتبعنى.. سرت خلفه لأجد نفسى بعد خطوات وسط ساحة كبيرةً فى نهايتها مسطبة مرتفعة فوقها صندوق خشبى أشار الأصلع إلى ورقة أخرجها من الصندوق وقال

لى: ها هى الورقة.. الكنز لك.. ولكن.. عليك قبل كل شئ أن تثبت ملكيتك له.. من جديد رأيت نفسى أدخل المتاهة.. ساحات وساحات.. مساطب.. دهاليز بلا نهاية.. سلالم تمتد كالأفق.. طرق تلتف كالنقش على جدار صدفة بحرية.. الضجيج يتعالى.. وتعلو الصيحات الغامضة.. وتعلو.. وتعلو.. أصعد نحو العُلا.. يرتفع الضجيج.. أنزل إلى آخر السلم.. يرتفع الضجيج.. استندت إلى جدارٍ وأغلقت أذنى. لكن الضجيج يرتفع ومعه تتداخل أصوات أقدام متعبة.. آهات.. أنات لاهثة خلف الممرات المتواترة تفتح عينى على النور ورئتى على الهواء.. تصفعنى أرضية سوداء تطيرها الريح.. السواد يخيم على المكان والضجيج سيد الوقت!!

يشدنى الأصلع من يدى ليدخلنى فى دوامة جديدة.. وفى الجانب الآخر يقف رجل آخر ضخم يشير بأسنانه إلى وليمة جديدة.. يشير إلى قلبى، ويهمس فى أذن مستمعه: قلبه طيبُ.. لذيذ.. فيما يصرخ رجل آخر بكلمات من لغتى.. لكننى لا أفهمها.. تتناثر الكلمات على الأرض شظايا من معانٍ، وأشلاء صور.. تدور حولى الدوائر.. ومن جديد يُلقينى الكابوس فى دوامة من الهذيان.. نفقُ طويل لا ضوء فى

نهايتـه.. فى الطرف الآخر بدا بصيـص نور راح يكبر ويكبر.. يقـترب هادراً كالشلال.. إنها جنية الحلم.. شعرها يتراقص كالأمواج العتيقة.. عـيـناها فـراشـتـان ورداؤها حـقل من النجـوم.. رفـرف قـلبى مع الفـراشتـين.. وتاه فى سـمـاء ردائها.. أيقـنت أننى مازلـت على قيـد الحـياة.. مـازلت قادراً على الإحـساس بالحب.. ازداد إصـرارى على الصمـود والتحـدى.. إنه الحب إذنّ وهذا المكان المقيت يمـتلك القدرة على فرز الجمال عن قباحته.. ورغم القسوة المنتشرة فى الزوايا.. هناك أيضـاً بقـعـة شـفـافـة من الجـمـال تضئ بعض العـتـمـة.. ولكن أين جنيتى؟؟!! كيف اختفى شعرها الشلال وسـط الزحام؟؟ تركتنى من جديد لـوعود الكاذبين ومـواعيد وصـولهم التى لاتأتى أبداً.. سـأعود إلى المتاهـة إذن.. أسمع أصواتاً تقـول: لم يبقى سـوى سطور وتصل. هل أصل حقاً؟؟!! لابد من ذلك.. قـد وعدنى ذاك الرجل عند الباب بالوصول إلى باب المغارة من جديد.. سـأخرج لأعانق جنيتى.. لاشك أنها الآن تـرنو بسعادة إلى نجـاح.. ونجاح.. تركض تحت الشـمس فى انتظار خروجى من هذه المغارة المتعبة لأنسى كل الأرضية السوداء التى تذكرنى بمجالس العزاء يوم قالت حبيبتى للحياة وداعاً.


الميراث

هل تقول الأرقام غير تسلسلها المتتابع.. قد عرفناها منذ رُكِّبَ في جوف الصدر إيقاعُ النبض ودقاتُ الانتظار.. طاف بالمشايخ.. وقدم للأضرحة.. عَرَقاً مصقولاً من حبات التعب المسكوك.. وعباً من وصفات الفحولة علقماً.. كان جريحاً يحمل عاراً في ماءه الحيوى.. ويتجرعُ نظراتٍ مشبوهة لاتنطفئُ رغم الظلمة.. الوجه ترسمه ملامح البداوة.. الرموش ليل مسترسل.. الجسد مضمخٌ بالشكوك.. الساعدُ مُشرعُ.. أمام زغرودة، وخلفه طلقة بارود.. يؤلم خواتم الأفكار ويرسله إلى الصبح معصوبًا بالصُّداع.. يتيما لأم ما تركت عرَّافة.. ولطالما عملت بتعاويذ اللحى البيضاء.. لم تدع نبتةً في الأرض إلا وشمت دخانها.. خَاطبتْ الشمس.. تَوسلتْ للقمر.. ليتورّم هذا البطنُ المنطفئُ به!!

كانت تدعوه إليها في توسلٍ أليم.. والقادمُ المنتظرُ من تخوم الماء محكومٌ بالسُخرة.. لكنه سيمحو كلَ عار.. لم تتذكر ليلة الزفاف المحفورة في كل الجسد البض.. أودعته هواجسها وهي تمسح عينيها المشتعلتين بالدموع الفائرة.. ومن رأسها غادرت ضفائر طويلة كأنها أفاعٍ رقطاء تتبعها في إخلاص مطرد أينما

دَارتْ.. الشرودُ كان سيد اللحظة!! فيه تتناسل لغاتٌ مزهوةٌ بغموضها المكشوف.. هو امتحانُ النسيان اللذيذ.. انقلب دولابُ الذكرى فانفتحتْ الأدراج وخرج منها يومَ عرسها.. حين جهزوها. وحملوها على فرسٍ محظوظ.. تحرسها بنادق الشموخ.. وكانت المزامير خيطاً موصولاً بصباح اليوم التالى.. ورقصً البنات أمواجٌ قبلية لم تلجمها أسوار الشوارب الماسكة بزناد الغضب البدوى.. ولأيامٍ نسيت الأقدامُ فيها طريقها إلى الحقول لولا احتجاجُ الدواب فى المرابض.. وفراغ التلاليس من الحنطة.. كم أدمن الناسُ النظر إلى بطنها الضامر.. قَلَّبتْ كل التأويلات.. هل يرون مالا ترى؟!! اعتقدتْ من سذاجتها أنهم يقصدون الحزام فغيرته قدر ما تتيح لها الأرقامُ التى تَعدُ.. لكنهم أبداً ظلوا ينظرون، وفى ليلة الشكوى.. أسرَّتْ له بحيرتها.. لم يقل شيئاً!! وصار منذ صباح اليوم التالى من الناظرين.. ومرةً سمعته يسألها فى توسل مزدحم "وريثًا".. عندئذ فقط بلعت حيرتها.. وبدأت طوافها المحموم بين أهل العلم والسحر..

وفى الصباح غادرته قتيلاً.. وفى رحمها زهوهُ الساخن!..

الهجـرة فى سكون الليل إلى.. لا مكان.. خذى أبداً جـهة القـمر ولاتلتـفتى إلى الوراء.. هنالك أولُ الـطريق.. ودربيه على النبـاح الشـرس.. قـولى له أن اليـتـيـمَ صـفـحـاتٌ منزوعـةٌ من كـتـاب المواريث.. وأن الدم ماءُ الله فى خلقه.. لايخرج إلا من ألمٍ..

ورأيتهـا تجمع حفنةً من التـراب المخلوط بالدمِ الذكى فى صُرةٍ صغيرة، وتَعقدُ لحافَ الرضيع لسفر طويل.. ثم إنحنتْ على رأس القبر المبلول وعلى شـفتيها رُغاءٌ مخـيفٌ ممتزجٌ بارتعاشة الوداع.. ونظرةٌ مؤنبةٌ للسماء.. وأخرى فى الاتجاه حيث إنهمرتْ خطواتها واختفتْ كعواصف الخريف.


الغربة

ـ تواترتْ الأنبـاءُ من كل مـكان.. وتضـاربتْ الأرقـامُ فى كل المعاملات.. بين الارتفاع والانخفاض صعوداً وهبوطاً..

ـ وبين «نيكاى» و"داو جـونز" تاه عـقله وزاغ بصره.. أصـيب بدوار.. وثب من على مقعده حيث كان يجلس بأحد المقاهى يتابع أخبار البورصة.

ـ لم يعِ شيـئاً مما شـاهد أو سمع.. فـقط ما دار بخلده كلمـتان اثنتان.. استرعتا انتباهه وعلقتا بذهنه.

ـ "إغراق" ـ "تعويم"..

ـ ظل يرددهمـا فى طريقـه إلى السـوق وهو يتحـسس القطعـة الورقية اليتيمة التى ضَمَّنها جيبه.. ألقى بنظره الضعيف من خلف نظارته "الكعب كوباية" على البضائع المثـمنة بورقةٍ وضعت عليها مسبقاً..

ـ كان يتنقل بين صنف وصنف وسلعة وأخرى دون أن يشترى شيئاً..

ـ يتباطأ.. يتوقف.. يتقهـقر إلى الوراء.. تتقلص أمعاؤه.. جثم

فى مكانه.. حدقَ بإسهاب.. المكان هو.. هو.. لكن الزمان ليس بهو.

ـ تذكر حين كان يصحبه أبيه يوماً ممسكاً بيده بينما كانت الأخرى تقبض عليه.. يناوله للبائع فى عزة وشموخ.. حيث كان رمزاً للقوة.. عفياً.. يسود المكان والزمان.. يشترى ببعضه كل شئ.. ويتبقى منه الكثير..

ـ يا إلهىّ ماذا حدث له؟؟

ـ انطفأ بريقه..

ـ مسحت عيناه الخرزيتان الورقة المستكينة فى يده.. دمدم غاضباً بعبارات لم تفهم وهو يطويها بين أصابعه المرتعشة.. تذكر طلبات البيت.. أحلام الزوجة.. جهاز البنت الكبيرة.. دروس الأولاد..

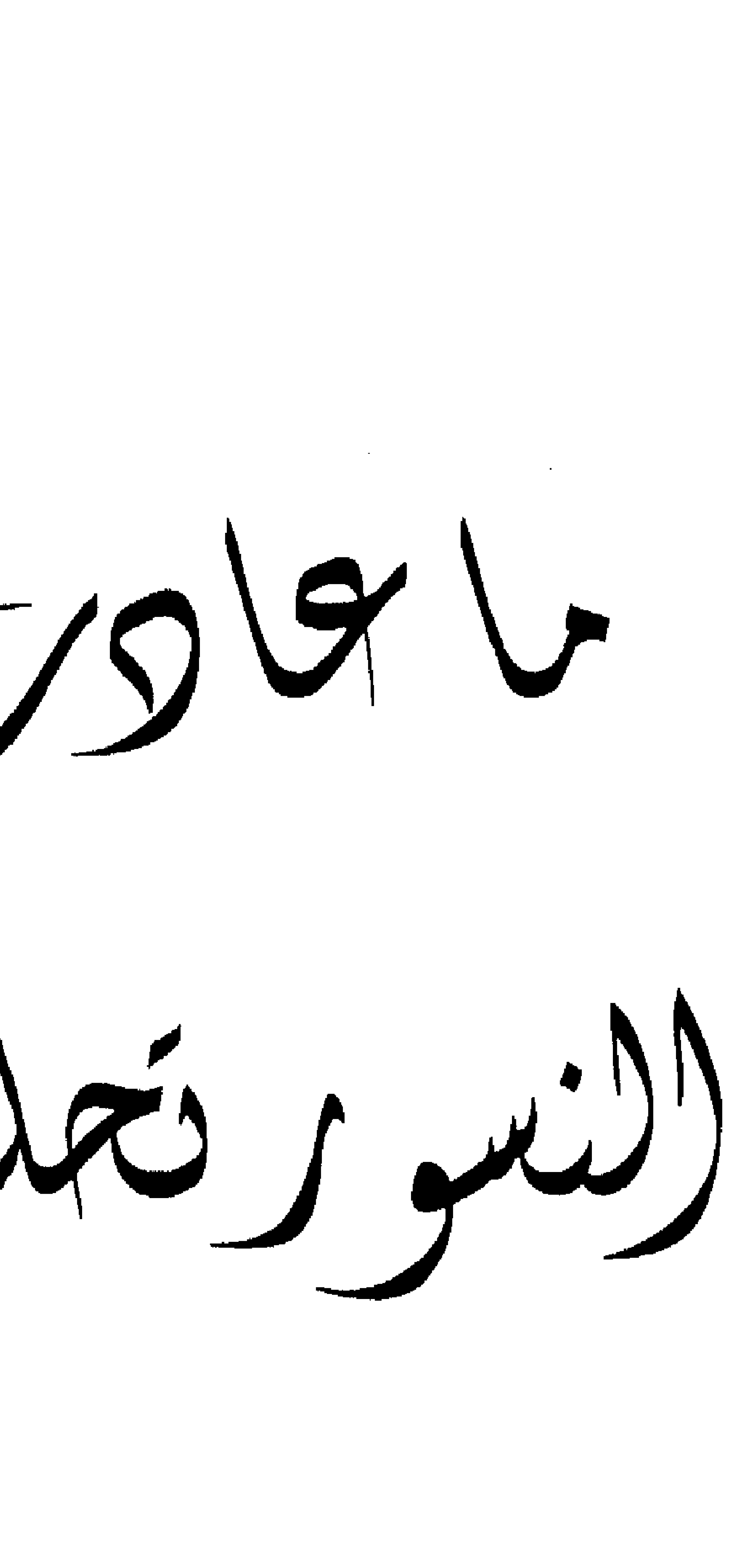
ـ إلى البحر.. سار بقطيع همومه.. تقبض كفهُ عليه.. ينعته بالملعون كلما ينظر إليه.. أعاده إلى جيبه ثانية.. وبدون أن يشعر غاص فى الماء حتى ابتل سرواله.. وعندما فتح عينيه وجد هؤلاء

الجـاثمـين فوق صـدره.. ولاحظ النظـرات تعاود الـتحـديق إليـه كموجات متتالية لاتنقطع.

ـ صاح فيه أحدهم.. "فيه حد يعوم بهدومه"..

ـ عندها تحسس جيبه الخالى.. قال فى رتابة..

ـ خلته يعوم مثلى..


ما عادت
النسور تحلق

ـ تكتم السر.. وتحلى بالثبات والصبر عاملاً بنصيحة أمه..

ـ "دارى على شمعتك تقيد"..

ـ اعتزل فوق سطح الدار.. وقاطع كل الأصدقاد.. تكور على قش الأرز.. جمع كل ما يحتاجه خلسةً لصنعها..

ـ الخيط.. الورق الأزرق والأحمر والأخضر.. الهلال والنجمة والورق المفضض.. الميزان والذيل الذى سيرقص بآلاف القصاصات.

ـ واحتفظ بسره ثلاثة أيام كاملة.. وحينما أتم صنعها أهداها إلى الريح وزرقة السماء.. أخذت تعلو وتعلو.. كانت تهتز وتراقص فى تتابع بديع لايخلو من لحظاتٍ للهبوط والصعود.. وكان الصبى النحيل "أحمد" وقد اكتسى وجهه الأسمر بحمرة الفرح يقودها ببراعةٍ واقتدار..

ـ فجأة!! هوت إلى أسفل.. استقرتْ على مياه ترعة راكدة.. استطاع أن يعرف العيب "عطل فنى بمنطقة الذيل"..

ـ فى ذلك اليوم الحزين.. كان يحلق عالياً فوق سماء المدينة الأطلسية.. فاغر الفم.. يابس الحلقوم.. وحيداً.. والهواءُ الراكد

فى كابينة القيادة يجثـو على صدره المنقبض.. إلى ركن مظلم يمد يده حـيث أضاء الـنور الخافت.. نظر إلـيهـا فى تحـفز وإصرار.. كانت تشيـر إلى الثانية بعد منتصف الليل الأنجلوسـاكسونى.. ثم أمعـن النظر ودقق جيـداً فى خانة التـاريخ.. فوجـد التقـويم الآن التاسعة والثلاثين من العمر..

ـ صمت.. سكون.. استـشعر بعده شيئـاً لم يستطع أن يبوح به لأحد.. حينئذ هوت.. وهوى.. وتناثرا على السطح الأطلسى.


خطوط فاصلة

من خـلال نافذتـه الكبيـرة بمنزله الريفى المتـواضع جـداً.. يطل عليك بوجـهٍ شاحب.. سـاكناً على كـرسيـه المتـحرك.. يقـبع فى حجرته الـكبيرة.. لا يفارقهـا إلا لأمر مُلّح. بابتسامـة رضا تغلف ثغره اليـابس الصغـير يلقاك مـرحباً وجـيد أسـود ممصوص يزدان بنجـمـة سيناء تلازمـه حـتى عند الخلـود إلى النوم.. بل قل إنهـا تلتصق بجسـده كوشم.. وطقوس يومية صـباحاً ومساءاً مُـدعمة بقبـلاتٍ حارة يطبـعها عليـها مع دمـوعٍ غزيرة تنهال كـمطر على الأرض الطيبة كلما تاقت إلى الماء العذب القراح.

هدوء.. صـمت.. ترانيم على جبـين الأيام لذكـرياتٍ خـالدة تفـوح منها أهازيج العـزة والكرامـة.. اليوم: هو فى أبهى زينتـه.. صحـا مبكراً كـعادته حيث كـان على موعدٍ مع رفـيقـة الكفاح.. حممـته وألبسته جلبابه الأبيـض وكسته بالعباءة القـصبى.. وزانته بمسبـحته الكهرمـان التى أتى بها من الحج يوم أن كرمـته الدولة.. فقد أقترب الموعد.. لقـاء الجدُ الأبناءَ والأحفادَ القادمين من بلاب المغـرب والمشرق.. اكـتظ بهم البـيت العتـيق.. ذلك البـيت الذى

أضحى الآن كوزارة الخارجية.. لغاتٌ كثيرة.. لهجاتٌ عدة تداخلت.. اختلطت معها الابتسامات والضحكات.. وخفقاتٌ لقلبٍ جائعٍ مُتعطشٍ إلى اللقاء المرتقب.. فهؤلاء الأحفاد يرى بعضهم لأول مرة منذ أن خلقهم الله تعالى فى بلاد الغربة..

الأصوات تتعالى.. ويتعالى معها الضجيج.. يقطعها صمتٌ طويل.. سكونٌ فى الذاكرة.. فالجد يحكى.. يروى..

هناك.. هناك.. يا أحفادى.. هناك.. هناك.. يا أولادى على الخط "خط المواجهة مع العدو" أتذكرون العدو الذى يتربص بنا.. ويضمر لنا الشر فى كل وقت.. أم تناسيتموه فى هوجة التناسى.. أفيقوا من ثباتكم.. تذكروه جيداً.. إنه خط النار.. إنه يوم عزتى وعزتنا.. كرامتى وكرامتنا ـ كان يتحدث واثقاً كخطيب منبر متمكن ـ يأخذ بنواصى لغته التى عهدها دائماً وتَعَّودَ على أحرفها حرفاً حرفاً.. والدموع تنهمر وتنهال.. يَخضَّل منها وجهه الباسم الراضى وهو ينظر إلى ساقيه المبتورتين فى إباء وشمم.. مردداً "أنا لم أنسى أبداً يوم المواجهة على الخط"..

كان ذلك قبل أن يخيم الوجوم على وجهه الباسم..

بُهتَ وخيبة أمل عريضة ضَربتْ جبينه البارز بالسواد حين قاطعه أحد أحفاده قائلاً: "إننى أعرف الخط جيداً.. إنه خط موبايللك يا جدو"!!.

زهرة في الوحل

كَيـانهُا الهش كاد أن يذوب خـجلاً أمام جرأتـه التى لـم تتسلح لمواجهتـها.. دهشتها الخـرساء تفجرت فى ملامح وجـهها الريفى الناصع التى اكـتست بصبـغة حـمراء زادتهـا جمالاً مـبهـراً وفتنة ملفتـة.. ابتسامتـهاُ الصامتـة الحذرة كانت هى ردها الوحيـد لصد اقتحامه المفاجئ لعالمها الهادئ.

"ملامـحك جذبتنى أثناء غـفوتك فرسـمتهـا على هذه اللوحة الصغيرة بريشتى المتواضعة" قـالها.. وهو يبدأ حواراً يعرف مُسَّبقاً كـيف يقوده إلى نـهاية ـ يحتـرم رسم أبعادها، بعـد دقـائق قليلة وجدت "زهرة" نفسـها تحكى له كل تفاصيل مشـوارها فى المسافة التى قطعـــهـا القطار من مـــحطة طنطا إلى الإسكـندرية.. أهداها لوحته وتمنى لهـا حظاً سعيداً فى المقـابلة التى ستجريهـا للالتحاق بعـملٍ فى إحـدى الشركـات.. وطلب منهـا أن تعـتبره صـديقـاً سكندرياً.. وألح أن تتصل به لتخبره بنتيجة "الانترفيو".

ولـم يفته أن يهمس قبل النزول إلى الرصيف "وجهك أجمل ما رأيت يا زهرة".. رصـيـدها الضـعيف مـن المؤهلات التى لاتملك منها سوى دبلوم تجـارة قديم ولاتجيد الكمـبيوتر وعلاقتـها باللغة

انقطعتْ منذ زمن جعلت الفشل الذريع سبيلاً سهلاً أمامها.

وقع كلماته على نفسها دفعها للاتصال به قبل عودتها إلى قريتها فى الغربية.. وجدته أمامها فى محطة القطار يودعها بلوحة أخرى رسمها هذه المرة من وحى خياله.. توالت اللقاءات.. انجذبت إلى كلمات شاعرها الرسام.. منحها ألواناً صاخبةً مبهرة لم تعرفها طوال سنواتها القاتمة.. اندفعت مستسلمة لتيار مشاعره المتدفقة بلا وعيٍ منها تعوض حناناً افتقدته منذ رحيل أمها وهى طفلة.. وجفاء معاملات زوجة الأب التى تنافسها زعامة البيت المضطرب.. "لابد أن نتزوج يا زهرتى".. لم تصدق الفتاة الريفية أنها استقرت فى قلب شاعرها الفيلسوف.. ولكنه كان زواجاً سرياً بورقةٍ كتبها أصدقاء الرسام على مقهى على الكورنيش.. أقنعها أنها خطوة أولى حتى يتمكن لاحقاً من إعلان زواجهما للجميع.. رحلاتها المكوكية إلى الإسكندرية خلقت مشاكل فى منزلها الريفى.. ومحاولات منعها من السفر إضطرتها لاتخاذ القرار الصعب..

بدأت تكتشف ملامح أخرى فى شخصيته.. سهراته حتى

الصباح.. اصطحابه الأصدقاء إلى منزل الزوجية لتعاطى المخدرات.. مبرراته لتساؤلات مذهولة كانت تحاول تصديقها.. لكنها أصيبت بالفزع عندما وجدته بلا نخوة.. يبرر لها تصرفات أصدقائه الطامعة فى أنوثتها.. صورتها التى رسمها لها شبه عارية وجدته يعرضها على الرجال بلا حرج.. وعندما اعترضت باكيةً تستجدى حباً راود أحلامها طلب منها أن تكتفى بإنفاقه على طعامها وشرابها.

خرجت إلى الشارع عندما هدد بتمزيق الورقة التى تربطهما.. لم تجد إلاَّ المقاهى التى جلست على مقاعدها معه وتنقلت بين الطاولات لتعرف المزيد من بشاعة حبيبها السابق.. ولأنها تعلمت منه جرأته.. خلعت برقع الحياء منذ أن عرفته.. وضعت صورتها التى رسمها على المحمول ترسلها بالبلوتوث.. وحددت الثمن لمن يرغب فى الظفر بأوقات جميلة مع زهرة بريئة.


أفراح لا ترى
أفراح

كان الغروب يسلب الضوء من طرقات القرية.. والهواء مشبعاً بعطر الحشائش المحترقة.. لم يعد يُسمع فى السماء صَوتُ الطيور.. وتحت ظلال الأفق البعيد يتقاطع صدى دوى المدافع وطلقات الرصاص.. أربعٌ وعشرون ساعة مضتْ وميعاد العرس كالكابوس يجثم على أفكارها.. يدق أعصابها بعنف.. العينان السوداوان بقعتان نجلاوان فى صفحة الوجه البيضاء.. العمرُ يتقافذ فوق العشرين ربيعاً.. سعير محمر سرى فى الوجنتين.. الأظافرُ تَعرَّتْ من طلائها واختفى القد داخل الرداء الأبيض الواسع.. الساقان البضتان اللتان تخلبان لب الشوارع البعيدة المزدحمة توارتا خلف الستار السميك لثوب الزفاف الأبيض المطرز.. فى غير تنظيمٍ تكور الشعر الأسود تحت الطرحة التُل البيضاء.. وعلى الصدر تعلق العقد ذو الليرات الأربع والعشرين الذهبية القديمة ميراثها الوحيد من الأم..

كابوسٌ اقتحم الحياة يمتطى آلياتٍ كريهة اللون، موسومةُ بالمثلث المعقوف.. تطأ جنازيرُها حلم الزهور البرية.. وتغرس بوجه الأرض علامة الموت.. تفور داخلها الدماء.. أدناها.. أعلاها فورةً عظيمة الشعور متوافقةً وثبات القلب المؤمن بالقضاء والقدر..

أخذت تجلب منذ الصباح هى والجيران علب الحلوى ذات الشرائط

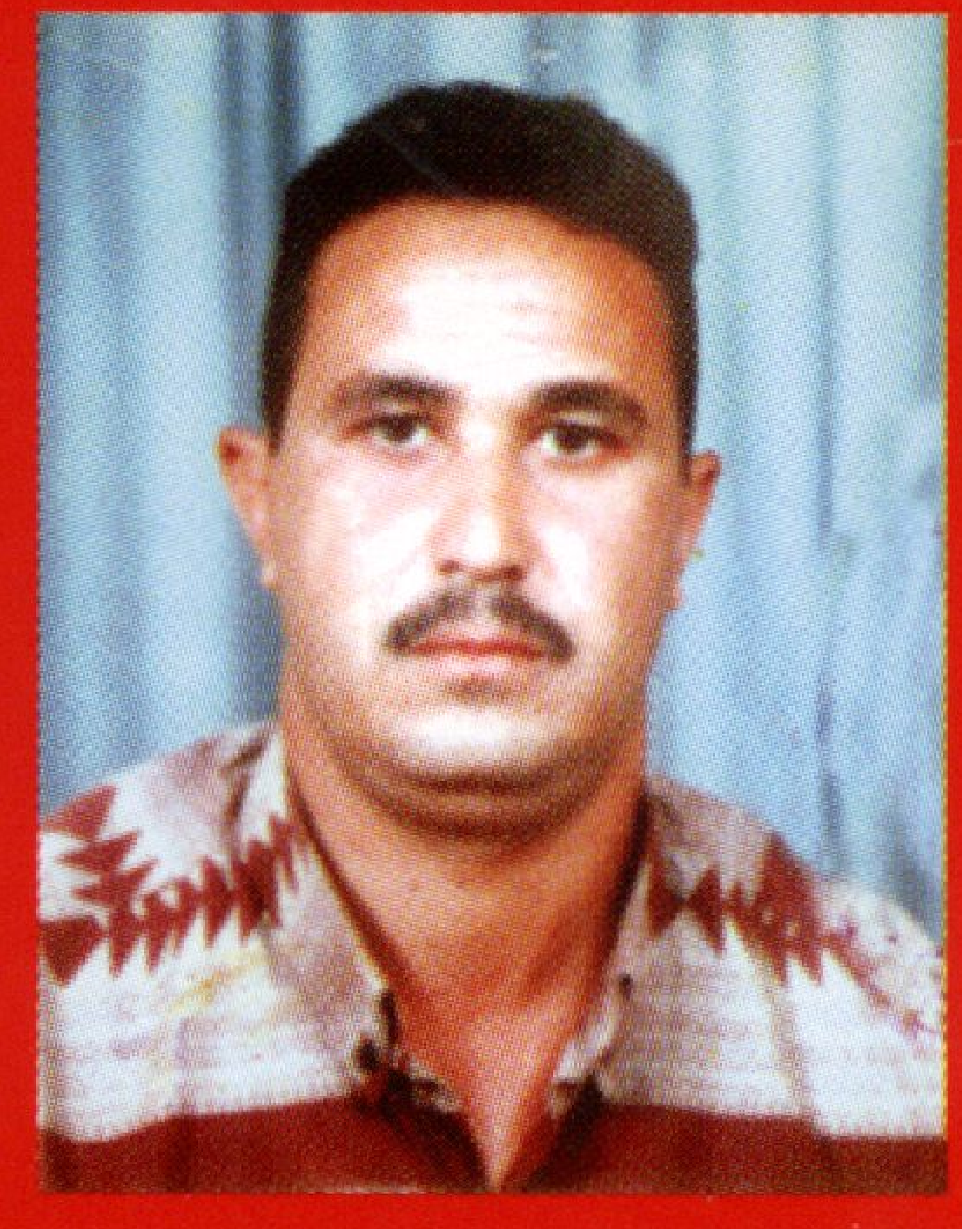
الملونة تضعها على جنبات السيارة البيضاء.. تُزّينها بالشرائط وبعض الزهور البريّة أمام دارها المحمية بصفصافة عارية الأوراق. وتحت قدميها ترامتْ الأراض الترابية محمرة بوهج الغروب وشعارٌ قديمٌ للنصر تجرأ في مواجهة العيون بلونٍ كالح وأحرفٍ متآكلة.. تُلَّوح لها من قريب بعض الرفيقات.. عجوزٌ تمر بها متهادية تغطى رأسها بشال أسود "عُرسٌ مباركٌ يا أفراح يا بنتى".. فتراءت لها ملامح الأم البعيدة فى حدائق الخليل.. ودار بخلدها "أفراح.. كأنما أرادت أمى بهذا الاسم أن تعم الأفراح كل الأراضى المحتلة"..

دار المحرك.. وغادرت السيارة البلدة تعبر الدروب المنهدة.. وَئيدةَ الحركة.. عروسٌ تُزف بين الأزهار البريّة والأطلال.. ومساحات عشب محترقة.. هابطة المرتفع الجبلى.. تاركة الأفق خلفها.. ذكرى ديار قديمة وأبواب عتيقة.. وحوائط صادقت الشظايا.. وهناك فى البعيد القريب حيث صار الآذان مخنوقاً نقطةٌ بيضاء مستطيلة تتحرك فوق طريق أحمر ملتوى كثعبان عجوز وبين بيوتٍ متشحة برداء الحزن.. وغيوم السماء تغطى الأفق.. حاولت الخروج من حالة الكآبة.. فأشارت إلى السائق "أبوعمار" أن يفتح المذياع فانساب منه صوت فتاة تروى بلهجةٍ عربية بفخرٍ وامتلاء كيف كان يومُ زفافها..

نوعُ فستانها.. نجومُ عرسها.. قيمةُ سوارها.. تترآى لها من بعيد النقطة التى تفصل الطرق ما بين قريتها وقرية العرس.. تتناثر الآلياتُ ذات اللون الموحل.. والرجال ذوى الملابس الرمادية المُشمرّة ورشاشاتٌ كبيرة تزدان بها أكتافهم العريضة.. آلياتهم سدت الطريق إلا من مساحةٍ لمرور سيارة واحدة فقط فى كل اتجاه.. ترى جنديًا يلّوح.. تقترب "أيها القابع خلف جدران الحلم بكل السنين التى دفعتك لكى تتشبث بهذه الأرض المباركة.. بهذه السنين ذاتها.. بهذا الحق ذاته.. يا من جعلتم الرب خاصاً بكم لأنكم معصومون.. لستم معصومين"..

دائرةٌ ذهبية.. كرةٌ حمراء كبيرة.. خيوطٌ زرقاء برقية.. صهيل شظايا.. أديمٌ مستعر.. الأرض حمم ودوى صاعقة تردده الجبال.. زغرودة.. تراتيل.. ودوى انفجار مرة أخرى.. فى داخل دائرة الحُطام المشتعل.. وبين بقايا شرائط مُلَّونة وبعض زهرات بَريّة تَناثرتْ فوق الأرض ليرات الخليفة العثمانى الذهبية.. مُلَقاةً جميعها على وجهٍ واحد، مصُطبغةً بلونٍ أحمر أرجوانى تلتمع فى بريق يتوالى.

الفهرس



المؤلف في سطور

- سيد غالب سيد إسماعيل
- ليسانس آداب
- مواليد: محافظة البحيرة ،مديرية التحرير، مركز بدر
- عضو نادي أدب بدر، القصة القصيرة
- نشر له: "أحلام مُحرمة" في مجلة دبي الثقافية، عدد أكتوبر عام ٢٠٠٨
- نُشر له: "٢٥ طوارئ" عام ٢٠٠٦ بأخبار الأدب
- نشر له [illegible] بأخبار الأ[illegible] ٢٠١٠
- أول محا[illegible] بحث عن [illegible] العالمية ع[illegible] الجمهوري[illegible] الثقافية ال[illegible]

كالريشة في الهواء.. هائمة في الخلاء.. تحملها الرياح من مكان إلي مكان.. تحط هنا أو هناك.. فوق عشب أخضر مغسول بماء الندي.. أو فوق الوحل.. تقع في يد إنسان رقيق المشاعر فيمسكها برفق ويحفظها في كتاب.. أو تقع تحت أقدام إنسان مهرول فيدوسها بالأقدام..

هذا هو.. أنت.. وأنا.. وكل إنسان في الوجود..

ريشة في هواء الكون.. تحملها رياح الأقدار.. وتتحكم في مصائرها فتحمل لها السعادة أو تجلب عليها الشقاء.. وفي هذه المجموعة ملامح عدة لشخصيات مختلفة كان للقدر ترتيباته الخاصة في رسم أبعادها وتحديد ملامح كل شخصية علي حده..

فتعالوا معاً نقرأ.. فإن عطاشي الروح يتطلعون إلي صراط الجمال..